



منهج الإمام الماتريدي
في تفسيره
"تأويلات أهل السنة"



إشراف الدكتورة

فريدة زمرد

إعداد الطالب

عبد الحفيظ الفرتوتي

بسم الله الرحمن الرحيم

في محاولة للكشف عن منهج الإمام الماتريدي في تفسيره، سأحاول ابتداءً أن أستعرض شيئاً من ترجمته . أرجو من خلالها الوقوف على بيئة الإمام، وعلى مختلف الجوانب التي أثرت في تكوينه واختياراته العلمية والمذهبية.

ترجمة الإمام الماتريدي

هو محمد بن محمد بن محمود بن محمد أبو منصور الماتريدي السمرقندي. قد يكون مولده في العقد الرابع من القرن الثالث الهجري، أي ما بين سنة 233 هـ وحتى سنة 240 هـ¹ أما وفاته ففي سنة 333 هـ على الصحيح المشهور. حلاه صاحب الجواهر المضيئي في طبقات الحنفية، عبد القادر محيي الدين الحنفي (ت 775 هـ) بصفات جلية قائلاً: " الإمام أبو منصور الماتريدي رئيس أهل السنة وأتباعه من الحنيفة أكثر.." وفي موضع آخر: " من كبار العلماء تخرج بأبي نصر العياضي كان يقال له إمام الهدى " اه..

شيوخه:

تتلمذ الشيخ أبو منصور الماتريدي على يد علماء كبار، ذكرت منهم كتب التراجم أربعة علماء يحتلون مكانة بارزة من بين أعلام الفقه الحنفي وبين علماء زمانهم وهم:

1 - أبو نصر العياضي:

أحمد بن العباس، وينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل سعد بن عبادَةَ الأنصاري الخزرجي رضي الله عنه، الفقيه السمرقندي.

قال أبو القاسم الحكيم السمرقندي: ما أتى الفقيه أبا نصر العياضي أحد من أهل البدع والأهواء، وأولى الجدل والمرء في الدين بآية من القرآن يحتج بها عليه لمذهبه - إلا تلقاها أبو نصر العياضي مبتدئاً بما يفحمه ويقطعه.

وقد تفقه أبو نصر العياضي على الإمام أبي بكر أحمد بن إسحاق الجوزجاني، تلميذ سليمان بن موسى الجوزجاني، وتفقه عليه جماعة منهم ولداه.

¹ تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) أبو منصور الماتريدي (المتوفى: 333هـ)، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية

- بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1426 هـ - 2005 م

2 - أبو بكر أحمد الجوزجاني: تلميذ أبي سليمان الجوزجاني الفقيه الحنفي (ت 200هـ)،

3 - مُحَمَّد بن مقاتل الرازي

4 - نصير بن يَحْيَى البلخي

ونظرة عامة إلى شيوخ الماتريدي تبين أنهم جميعًا يرجعون في علمهم إلى الإمام أبي حنيفة. ومن ثم فهو يعتبر متخرجًا من مدرسة أبي حنيفة وعلى يد أعلام المذهب الحنفي، ولا أدل على ذلك من أنه كان يتبع المذهب الحنفي في الفقه، وبلغ فيه شأواً عظيماً بين أقرانه.

تلاميذه:

1 إسحاق بن مُحَمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن زيد، أبو القاسم القاضي الحكيم السمرقندي (ت 342هـ) قال عنه أبو سعد السمعاني: روى عن عبد الله بن سهل الزاهد، وعمرو بن عاصم المروزي، وتفقه بأبي منصور الماتريدي. وقد تولى إسحاق قضاء سمرقند أياماً طويلة، وحمدت سيرته، ولقب بـ "الحكيم"؛ لكثرة حكمته ومواعظه.

2 عبد الكريم بن موسى البزدوي النسفي (المتوفى: 390 هـ) كان زاهدا مفتيا.

3 أبو عبد الرحمن بن أبي الليث البخاري صاحب أبي القاسم إسحاق بن محمد، و هما من أقران أستاذهما أبي منصور الماتريدي وعنه أخذ علم الكلام والفقه¹

مؤلفاته:

كتاب التوحيد

كتاب المقالات

كتاب بيان أوهام المعتزلة

كتاب تأويلات القرآن وهو كتاب لا يوازيه فيه كتاب بل لا يدانيه شيء من تصانيف من سبقه في ذلك الفن²

كتاب تأويلات أهل السنة - وهو تفسيره -

رسالة: "ما لا يجوز عليه الوقف" مخطوطة³

وفتاواه مبنوتة في كتب الفقه الحنفي وكذا أقواله في كتب العقائد و الفرق.

¹ الجواهر المضية في طبقات الحنفية، عبد القادر بن محمد بن نصر الله القرشي، أبو محمد، محيي الدين الحنفي (المتوفى: 775هـ)،

مير محمد كتب خانة - كراتشي.

² نفس المصدر السابق

³ فهارس علوم القرآن الكريم لمخطوطات دار الكتب الظاهرية، صلاح محمد الخيمي، الناشر: مجمع اللغة العربية - دمشق،

1403 هـ - 1983 م

عصر الإمام

نشأ الإمام في العهد العباسي، في وقت بدأ فيه ظهور دول مستقلة في الشرق الإسلامي. فكانت سمرقند وقتها تحت سلطة الدولة السامانية. وقد كان لاعتراف هذه الدولة بالخلافة العباسية، دور في استقرار وطن الإمام الماتريدي. فازدهرت الحضارة الإسلامية في عهد الدولة السامانية- شأنها شأن العصر العباسي في القرن الثالث- حتى كانت بخارى، وسمرقند، وبلخ تحت حكمهم منارات للعلوم الدينية، يفد إليها الطلاب من كل حذب وصوب. كما انتشر الرخاء في عهدهم، واتباعهم سبيل الحق في حكمهم، حتى مدحهم المقدسي فقال: إنهم أحسن سيرة. وهذا فضلاً عما عرف عنهم من إجلال للعلم وأهله، فقد كان من رسومهم ألا يكلفوا أهل العلم تقبيل الأرض بين أيديهم.

اهتم أمراء الدولة السامانية أيضاً بالعلوم الطبيعية والأدبية، فقد نبغ علماء وشعراء في بلاط هذه الدولة، فنبغ الرودي، أول شاعر غنائي في فارس، ومؤسس الملحمة التعليمية التي تعد من أخصب فروع الأدب الفارسي.

وابن سينا الفيلسوف الطبيب الذي بدأ يظهر إنتاجه في عصر منصور بن نوح الساماني (ت 350 هـ) وبخاصة كتابه القانون في الطب.

خلاصات من ترجمة الإمام:

- نشأة الإمام في دولة سنية موالية لدار الخلافة

- تمذهب الإمام بالمذهب الحنفي، و يظهر ذلك من خلال شيوخه ومؤلفاته.

- تأثره بعلم الكلام وإتقانه لمباحثه وقضاياها

- تميز عصره بقوة علمية سواء في النقلات أو العقلات

- نشأته في قطر اشتهر بعلماء كبار منذ فتحه.

منهج الإمام الماتريدي في تفسيره:
تأويلات أهل السنة

طبغات الكتاب وتحقيقاته:

توالت تحقيقات الكتاب بعد ظهوره، فحققت بعض أجزاءه ثم حقق بكامله. ورغم كثرة النسخ المخطوطة للكتاب والتي بلغت ستا و ثلاثين نسخة¹، إلا أن أكثر محققيه لم يعتمدوا على أكثر من نسختين أو ثلاث. ومن هذه التحقيقات:

1. تحقيق الدكتور إبراهيم عوضين و السيد عوضين للجزء الأول من الكتاب، والمتضمن سورة الفاتحة والآيات 1-140 من سورة البقرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة، 1391هـ-1971م.
2. تحقيق الدكتور محمد مستفيض الرحمن لسورة الفاتحة و سورة البقرة كاملة، إصدار وزارة الأوقاف و الشؤون الدينية في بغداد، سنة 1404هـ-1983م،
3. تحقيق فاطمة يوسف الحبي ط الاولى، الرسالة ناشرون، 2004م، و اعتمدت نسختين، الأولى من المكتبة الظاهرية في دمشق و الثانية من دار الكتب المصرية. (وهو التحقيق الذي اعتمدت)
4. تحقيق مجدي باسلوم، واعتمد على ثلاث نسخ خطية: نسختين بدار الكتب المصرية، ونسخة بتركيا، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1426هـ-2005م.
5. تحقيق د. بكر طوبال اوغلي مع لجنة علمية حصلوا على نحو ثلاثين نسخة واعتمدوا منها على أربع نسخ. واستفادوا من شرح التأويلات لعلاء الدين السمرقندي تلميذ أبي معين النسفي وله تسع نسخ خطية منها ست نسخ في تركيا²

1 كتاب التوحيد، أبو منصور الماتريدي، تحقيق: د. بكر طوبال أوغلي و محمد آروشي، دار صادر، بيروت، مكتبة الإرشاد استانبول، 2001م، ص. 24.

2 نفسه، ص. 25.

عرض المنهج:

سأعرض نظرة تقريبية لمنهج الإمام الماتريدي في تفسيره ، من خلال تفسيره للآيات 57 إلى 63 من سورة النساء على وجه الخصوص ، ثم من خلال نظرة عامة حول تفسيره ككل ، بالوقوف على بعض آيات الأحكام وتتبع بعض الأعلام الذين أكثر المصنف من إيراد أقوالهم.

وسيتكون هذا العرض من العناصر التالية:

- ◆ المراحل التفسيرية
- ◆ الأدوات التفسيرية
- ◆ الأسس الفكرية
- ◆ المصادر التي اعتمدها المفسر

وبعد كل عنصر أورد خلاصة تجمع ما تفرق، و تكون كاستنتاج لما لوحظ من خلال هذا العنصر.

المراحل التفسيرية

من خلال النظرة الأولى لتفسير الإمام نلاحظ ما يلي:

■ يفسر الآية جزءا جزءا

مثال: " وقوله - عَزَّ وَجَلَّ - : (وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ) أي: أمروا أن يكفروا بالطاغوت؛ كقوله - تعالى - : (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى).
وقوله - عَزَّ وَجَلَّ - : (وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا) أي: يزين لهم الشيطان ليضلوا ضلالاً بعيداً؛ أي: لا يعودون إلى الهدى أبداً، فيه إخبار أنهم يموتون على ذلك، فكذلك كان، وهو في موضع الإياس عن الهدى.. "

■ لا يراعي ترتيب أجزاء الآية:

مثال: عند تفسيره قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) (فسر أجزاء الآية، وبعد استكمالها لتفسيرها، رجع فقال : وقوله - عز وجل - : (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ).. وجعل يفسر الآية مرة أخرى موردا لآية وأحاديث في معناها.

وقد تتبع ذلك في كثير من الآيات فوجدته منه مطردا، وكثيرا ما يفعله، بل قد يعود لتفسير جزء آية بعد أن يشرع في تفسير الآية الموالية، كما وقع عند تفسيره لقوله تعالى: أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغا (63) حيث رجع لتفسير جزء من الآية 62 وهو قوله تعالى: (إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا) ثم استكمل بعد ذلك تفسير الآية 63

■ أحيانا يتداخل التفسير مع الآية: حيث يربط المصنف أجزاء الآية بعضها ببعض بألفاظ تزيدها بيانا. مثال:

وقوله - عز وجل - : (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ) من النفاق والخلاف غير ما حلفوا، (فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ) ولا تعاقبهم في هذه المرة (وَقُلْ لَهُمْ): إن فعلتم مثل هذا ثانية عاقبتكم.

■ إن كان للآية سبب نزول يبدأ بذكره.

مثال: " وقوله - عز وجل - : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا)

قيل: لما فتح الله مكة على يدي رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فقال العباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: يا رسول الله، لو جعلت السقاية والحجابة فينا؛ فأخذ مفاتيح الكعبة من ولد شيبه فدفعها إلى العباس؛ فأنزل الله - تعالى - هذه الآية؛ فأخذ النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مفاتيح الكعبة فردها إلى ولد شيبه، ثم قال النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: " يا عم، إن الله - تعالى - أَحَبُّ أَنْ يَرِزَأَ وَلَا يَرِزَأَ شَيْئًا.

وقيل: إنها نزلت في الأمراء في الفياء الذين استأمنهم على جمعها وقسمتها، والصدقات التي استأمنهم على جمعها وقسمتها."

■ يذكر التفاسير المختلفة ويبين أوجهها موافقا في ذلك لما نص عليه في مقدمة تفسيره أن التأويل ذو وجوه، ثم يرجح بينها.

مثال: "... ثم اختلف في أولي الأمر: قيل هم الأمراء على السرايا. وقيل: هم العلماء والفقهاء. وقيل: هم أهل الخير. ويحتمل: أولي الأمر: الذين يُؤلَّون السرايا. فكيفما ما كان ومن كان، ففيه الدلالة ألا يولى إلا من له العلم والبصر في ذلك، أمراء السرايا كانوا أو غيرهم؛ لأنه - عَزَّ وَجَلَّ - أمر بطاعتهم، ولا يؤمر بطاعة أحد إلا بعلم وبصر يكون له في ذلك."

■ غالبا ما يبدأ بالأحكام العقدية المتعلقة بالآية ثم الأحكام الفقهية أو الأصولية:

مثال: وقوله: (يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) هذا على المعتزلة؛ لأنه أخبر عز وجل أنه (يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)، ولا جائز أن يهدي وهو لا يهتدي. وهم يقولون: شاء أن يهدي ولكن لم يهتدوا. وقوله: (مَنْ يَشَاءُ) وعلى أن مشيئة الهداية ليست للكل على ما قالت المعتزلة: أن هدايته بيان وذلك للجميع. وفيه دليل نسخ السنة بالكتاب؛ لأن القبلة إلى بيت المقدس لم تكن المذكورة في الكتاب، بل عملوا على سنة الأولين الماضين، وهذا على الشافعي؛ لأنه لا يرى نسخ الكتاب بالسنة إلا بعد عمل رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فإذا عمل به صار سنة، فهو نسخ السنة بالسنة، لا نسخ بالكتاب.

■ في آخر تفسيره للآية يذكر حرفي حفصة وابن مسعود فيما خالفا فيه الحرف الذي فسره.

مثال: وفي حرف حفصة: " ذلك خير وأحسن ثوابا " .

■ يختم تفسيره بذكر الأقوال المنقولة عن الصحابة، وقد أكثر النقل عن ابن عباس وأكثر منه ابن مسعود رضي الله عنهما.

مثال: ما ختم به تفسير قوله تعالى " ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ":

وعن ابن عباس: (ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) قال: القرآن أحسن تأويلا.

إذا كان الهدف من بيان المراحل التي يسلكها المفسر هو الوقوف على منهجه من حيث الشكل، وما مدى ترتيبه لهذه المراحل و تنظيمها، فإننا نقف على العكس من ذلك في التفسير الذي بين أيدينا، فعلى الرغم من سلوك المصنف لمراحل مختلفة في تفسيره للآيات و تنويعه لها (أسباب النزول، الأحكام العقديّة، الأحكام الفقهيّة وغيرها) إلا أنه لم يراع ترتيبها. كما يلاحظ تكرر تفسير جزء الآية الواحدة في مواضع مختلفة مع بعض الإضافة أو التفصيل. ويبقى السؤال هاهنا: ما سبب هذا التكرار؟ وهل قصده الامام قصدا أم لا؟ أم أن أصل هذا السفر التفسيري كان عبارة عن مجالس تفسيرية ألقاها الإمام الماتريدي، مصداقا لقول القائل: " التكرار أمر لا مناص منه في العرض الشفوي"؟

الأدوات التفسيرية

أسباب النزول: لا تكاد تقرأ آية ورد لها سبب نزول إلا ويذكره الإمام عند شروعه في تفسيرها، ثم يعقب ذلك بتعميم معنى الآية وبيان عدم اختصاصها بسبب نزولها عملا بقاعدة " العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص المعنى"

مثال: بعد ذكره أسباب نزول قوله تعالى: " إن الله يأمركم " الآية قال: "والآية يجب أن تكون نازلة في كل أمانة أو ثمن المرء فيها، من نحو ما كان فيما كان بينه وبين ربه، وما كان فيها بين الخلق."

القراءات: ولا يذكر منها إلا ما كان فيه إضافة معنى، مع الاهتمام بتوجيهها، ولا يستطرد في تشعبات هذا الفن. كما يمتاز المصنف بذكره لحرفي حفصة و ابن مسعود واختلافهما عن المصحف الإمام.

مثال: وقوله - عز وجل -: (وكذلك نفضل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين 55) (سورة الانعام) قرئ بالياء والتاء جميعا.

فمن قرأ بالتاء نصب السبيل يجعل الخطاب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أي: لتعرف سبيل المجرمين. ومن قرأ بالياء رفع " السبيل " كأنه قال فصل الآيات وجوها.

الحديث النبوي الشريف: إيراده للحديث إما مع ذكر الصحابي وإما بدونه وهو الغالب - حسب ما اطلعت عليه- ولا يذكر سندا ولا مصدرا حديثيا، فيكون بذلك خالف إحدى الخصائص التي ميزت تفاسير عصر التدوين وهي كون التفسير مسندا إلى من جمعه.

اللغة: ويلاحظ قلة استعمال المصنف لهذه الأداة، والغالب أن يسند الاختيارات اللغوية إلى أصحابها

وقد تناول قضايا نحوية مثل:

- عند تفسيره لقوله تعالى: " والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم " وقال الكسائي: نصب كتاب الله على قوله: حرم كذا وأحل كذا، كتاب الله عليكم؛ على الأمر؛ يقول: عليكم كتاب الله، ودونكم كتاب الله، اتبعوا كتاب الله، في نحو هذا المعنى.

- وقوله - عز وجل -: (وقالوا مهما تأتانا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين (132)

وقوله " مه " زيادة، وهو قول القنبي، ومعناه: أي ما تأتانا.

وقال الخليل: هو في الأصل " ما " " ما " " ما "، إحداها زيادة، فطرح الألف وأبدلت مكانها هاء؛ طلبا للتخفيف.

وقال سيبويه النحوي: قوله: (مهما تأتانا به من آية) أي: مه أي كأنهم قالوا له: مه، أي: اسكت، كما يقول الرجل لآخر: مه، أي: اسكت، " ما تأتانا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين " .

ملاحظة: هذا هو الموضوع الوحيد الذي ذكر فيه سيبويه .

وقضايا بيانية مثل:

وقوله - تعالى -: (فإن مع العسر يسرا (5) إن مع العسر يسرا (6)):

قال بعضهم: إنما كان عسرا واحدا، وإن ذكره مرتين " لأن العسر الثاني ذكره بحرف التعريف؛ فهو الأول واحد؛ واليسر ذكره بحرف النكرة؛ فهو غير الأول.

وقال أبو معاذ: كلما كررت المعرفة كان واحدا، والنكرة على العدد.

- وقوله - عز وجل -: (وامراته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب (71)

فعلى تأويل من قال: إنها ضحكت تعجبا مما بشرت بالولد فهو على التقديم والتأخير

- وقوله تعالى (ثم يعودون لما قالوا) ... ويجوز أن يذكر الفعل ويراد به المفعول، كقوله - عليه السلام -
: " العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه " ،

وقضايا صرفية مثل:

- وقال الكسائي والفراء يقال منه: نقبت عليه، أنقبت، نقابة، وهو فوق العريف؛
- وقال الكسائي: (الضرر) مصدر الضرير والمضرور، والضرير: الأعمى، يقال: ضر بصره، فهو ضير
ومضرور: إذا عمي.

علم الكلام: ويظهر للإمام التمكن التام من صنعة الكلام، كيف لا وهو زعيم المدرسة الماتريدية
الكلامية. ولا يألو الإمام جهداً في دحض حجج المخالفين، وعلى رأسهم المعتزلة. و مما يبين اهتمام الإمام
بهذه الأداة، أنه يبدأ باستثمارها قبل خوضه في تفسير الآية في مواضع كثيرة.

أصول الفقه: فتراه يستخدم مصطلحات أصولية عند مناقشته كثيراً من معاني الآيات. من ذلك:
قوله تعالى (شهداء من رجالكم)

"... والا القياس يقتضي أن تجوز شهادة العبيد؛ لأنها من حق الله، ودليله قوله تعالى: (وأقيموا
الشهادة لله)، وقوله: (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط). فإذا كانت من حق الله
تعالى، وحقوق الله تعالى لا يختلف العبيد والأحرار فيها، فيجب أن تقبل شهادتهم، لكنها لم تقبل
للووجه التي ذكرناها. والله أعلم."

وقوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله وانتقوا الله إن الله سميع عليم (1)
إذ مثل هذا الخطاب لو كان لواحد خاص لكان حكمه يلزم الكل، وكذلك لو كان في أمر واحد
وفعل واحد كان يدخل في ذلك جميع الأمور، فكيف والخطاب بذلك عام مطلق؟! فهو للكل،
وفي كل الأمور، والله الموفق.

علم الفقه: يورد أقوال الفقهاء وخاصة الأحناف منهم مع ذكر حججهم.

مثال: عند تفسير قوله تعالى إن الله يامركم أن تودوا الامانة" الاية قال:

"واختلف أهل العلم في العارية إذا ضاعت: قال أصحابنا - رحمهم الله -: لا شيء عليه. وقال غيرهم:
عليه الضمان.

ولأصحابنا - رحمهم الله - في ذلك عدة حجج:

أحدها: أن المستعير إن لبس القميص، أو ركب الدابة، أو حمل عليها ما أذن له في حمله عليها، وأصابها في ذلك نقصان في قيمتها - فلا شيء عليه، فإذا لم يكن عليه ضمان فيما وقع بها من الضرر والنقص بفعله، ولبسه، وركوبه - فلا يجب عليه ضمان ما هلك منها بغير فعله.

والثاني: ما روي عن ابن الحنفية، عن علي - رضي الله عنه - قال: العارية ليس بتبعة، ولا مضمونة، إنما هي معروف، إلا أن يخالف فيضمن..."

◀ أسلوب الجدل: حيث يجيب عن أسئلة مفترضة ويعرضها على شكل "فإن قيل كذا قيل كذا" مثال: وقوله - عَزَّ وَجَلَّ - : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

" فإن قيل: كيف خص الله - تعالى - المؤمنين بالخطاب بالطاعة له وطاعة الرسول والأمر بها يعم المؤمن والكافر جميعاً؟.

قيل فيه بوجوه ثلاثة:

أحدها: أن من عادة الملوك أنهم إذا خاطبوا بشيء إنما يخاطبون أهل الشرف والمجد، ومن كان أسمع لخطابهم، وأعظم لقولهم؛ كقوله - عَزَّ وَجَلَّ - : (يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي) وقال - تعالى - : (يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا)، يخاطبون أبداً أهل الشرف والمجد..."

خلاصة:

من خلال عرض الأدوات التي اعتمدها الإمام في تفسيره، نقف على أهمية هذا التفسير و قيمته العلمية، لاشتماله على فنون شتى، من أسباب نزول كان لا يكتفي بذكر واحد منها فقط، وقرارات بالإضافة إلى توجيهها زاد ذكر حروف بعض الصحابة، وحديث نبوي وإن قصر في إسناده إلا أنه لم يغب في تفسير أغلب الآيات، وعلم كلام ينبئك عن أهميته في هذا التفسير العنوان - تأويلات أهل السنة-، وعلم أصول فقه كان يناقش قضاياها التي تعرض عند تفسير بعض الآيات، كما يرجح بعض الاختيارات الأصولية على بعض، وعلم فقه ظهر فيه تعصب الإمام لمذهبه الحنفي موظفا أسلوبه الجدلي - كالفنقلة (فإن قلت قلت) - في الانتصار لاختياراته، سواء الفقهية منها أو العقديّة.

وخلاصة الخلاصة، تنوعت أدوات الإمام الماتريدي في تفسيره، لتنوع معارفه و بلوغه درجة علمية رفيعة، وكل ذلك يعلي من شأن تفسيره و يرفعه.

وتنقسم إلى قسمين: مشتركة و خاصة:

المشتركة: ويشترك فيها كل المفسرين، اعتمد المصنف بعضها- حسب ما ظهر لي- وهي:

❖ تفسير القرآن بالقران: وقد تنوعت طرق استثمار الإمام لهذا الأساس:

← فيكون على سبيل بيان نظائر الآية المفسرة.

مثال: وقوله - عَزَّ وَجَلَّ -: (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) وقال - عَزَّ وَجَلَّ -: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)

← وقد يورد الآية كشاهد على بعض الأقوال

مثل قوله عند تفسير قوله تعالى: (فَكَيْفَ إِذَا أَصَابْتُم مَّصِيبَةً بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا) (62)

وقيل: نزلت في المنافقين في بناء مسجد ضاررا، كقوله - سبحانه وتعالى: (وَلْيَخْلَفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى).

وكثيرا ما يذهب إلى ذلك لتقرير بعض القضايا العقديّة ومنه:

" ثم في الآية دلالة أن الإيمان يكون بالقلب؛ لأنه قال - تعالى -: (ثم لا يجدوا في أنفسهم) أي: في قلوبهم؛ ألا ترى أنه قال الله - تعالى - في آية أخرى: (ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا)، ذكر ضيق الصدر، وذكر ضيق الأنفس، وهو واحد؛ ألا ترى أنه قال الله - عز وجل -، في آية أخرى: (ولم تؤمن قلوبهم)، فهذه الآيات ترد على الكرامية قولهم.."

❖ تفسير القرآن بالسنة: ويظهر ذلك من كم لا لبس به من الأحاديث التي أوردها المفسر في تفسيره

← فتكون معضدة لمعنى الآية:

مثال: وقوله - عَزَّ وَجَلَّ -: (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) ...

وعلى ذلك جاءت الآثار:

روي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " ما من أحد يكون على شيء من هذه الأمور -قلت أو كثرت- فلا يعدل فيهم إلا أكبه الله - تعالى - في النار."

وفي خبر آخر: " أيما امرئ ولي من أمر الناس شيئا ثم لم يحطهم مثل ما يحوط به نفسه وأهله لم يرح رائحة الجنة يوم القيامة ".

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " إن من أحب الناس إلي وأقربهم مجلسا مني يوم القيامة: إمام عادل، وإن أبغض الناس إلي يوم القيامة وأشدهم عذابا: إمام جائر ".

← أو تكون الأحاديث من ما يصلح لتفسير آية

مثال: ألا ترى أنه روي في الخبر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " يا أيها الناس، اسمعوا وأطيعوا، وإن أمر عليكم حبشي مجدع فاسمعوا له وأطيعوا ما أقام فيكم كتاب الله ". وعن ابن عمر - رضي الله عنه - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فمن أمر بمعصية فلا سمع عليه ولا طاعة ".

❖ أقوال الصـحابة : وأكثر من ذكر منهم: ابن عباس وابن مسعود. وقد لاحظت أنه كثيرا ما يورد أقوالهم في آخر حديثه عن الآية المفسرة.

مثال: " وقوله - عز وجل - : (كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم . . .) الآية. اختلف فيه:

قيل: (كذلك كنتم من قبل) ضللا كفارا؛ (فمن الله عليكم) بالإسلام والهجرة، وهداكم به. وقيل: (كذلك كنتم من قبل) تخفون إيمانكم من المشركين وتكتمونه؛ (فمن الله عليكم) بإظهار الإسلام وإبدائه.

وقيل: (كذلك كنتم من قبل) تأمنون في قومكم من المؤمنين بـ " لا إله إلا الله "، ولا تخيفوا من قالها؛ (فمن الله عليكم) بالهجرة. وعن ابن عباس قال: (كذلك كنتم من قبل) كفارا تقاثلون على الدنيا "

الأسس الخاصة: وهي التي تميز مفسرنا:

■ الأساس الكلامي: وذلك واضح من عنوان تفسيره، ولا تكاد تمر آية إلا وتكون ردا على طائفة مخالفة، كالمعتزلة و الرافضة الإمامية، ويفصل الإمام ويكثر من ذكر حججه الكلامية.

كما فعل عند تفسير قوله تعالى: "فردوه إلى الله والرسول"

ويظهر ذلك أكثر عند تفسيره لآيات الاعتقاد. من ذلك تفسيره قوله تعالى: "و جاء ربك و الملك صفا صفا" حيث أطال في تأويل المجيء وختم حديثه بقوله: "والله تعالى لا يوصف بالجسمية حتى يفهم من مجيئه ما يفهم من مجيء الأجسام، ولا يوصف بالعرض؛ ليراد به ما يراد من مجيء الأعراض؛ فحقه الوقف في تفسيره مع اعتقاد ما ثبت بالتنزيل من غير تشبيهه، والله أعلم"

■ الأساس الفقهي على مذهب أبي حنيفة: ويظهر تعصب الإمام للمذهب الحنفي جليا واضحا، ولا يستنكف في نقد المخالفين بل وازدراءهم و الغلظة عليهم أحيانا. لمست ذلك حين تتبعت المواطن التي ذكر فيها أقوال الإمام الشافعي رحمه الله حيث كان نقده له لاذعا كقوله حين أورد تفسير الشافعي للمس الوارد في آية الوضوء بالجماع وما دونه: "فذلك ابتداع في الآية قولاً وتفسيراً؛ خالف فيه ما روي في تفسيرها عن الصحابة جملة والسلف؛ لذلك كان مخطئاً مبتدعاً". كما يستثمر كل آية في تعضيد مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله.

خلاصة:

اعتمد المصنف أسسا بعضها مشترك، وهو ما يمكن أن يمثل قضايا أصول التفسير، و بعض آخر خاص ميز تفسيره و وطبع منهجه فيه. و قد نوع الإمام في طرق استثمار هذه الأسس. و تجدر الإشارة إلى انسجام عمل الإمام في تفسيره مع ما ذكره في مقدمته، وذلك عند عرضه لأساس "أقوال الصحابة" حيث لم يكن يعقب عليها، إذ جعل لهم التفسير ولغيرهم من الفقهاء التأويل، والتفسير ذو وجه فلا يناقشه، و التأويل ذو وجوه وهو محل النقاش. ومن خلال الأسس التي اعتمدها، يمكن أن نستنتج أن تفسيره موجه إلى فئة معينة من الطلبة دون عامة الناس، حيث لم يهتم ببيان المعنى التفصيلي للآية، يتضح ذلك من خلال قلة اهتمامه ببيان المعنى اللغوي للآية أي تفسير القرآن باللغة.

جرد المصادر و كفة تعامل المفسر معها:

☆ الحديث النبوي:

اهتم الماتريدي بذكر الأحاديث في تفسيره في سياقات مختلفة، فيوردها لتفسير آية أو نصره مذهب فقهي أو عقدي. كما يوردها مجردة عن الأسانيد، وقد يكتفي بذكر الصحابي فقط. ولا يتعقبها بتصحيح أو تضعيف.

الأقوال المنقولة

العدد	الأعلام	الصف
577	ابن عباس	الصحابة
296	ابن مسعود - وقد يذكر اسمه كاملا-	
70	حفصة	
56	عبد الله بن عمر	
32	أنس بن مالك	
61	أبو معاذ النحوي	اللغة
69	الكسائي	
31	الفراء	
537	الحسن البصري	التفسير
386	أبو عوسجة	
339	القنبي، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة	

171	عبارة " قال أهل التأويل "	
114	أبو بكر الأصم عبد الرحمن بن كيسان	
102	قتادة	
41	أبو بكر الكيساني	
40	أبو حنيفة	الفقه
30	الشافعي	
2	مالك	
5	محمد بن الحسن الشيباني	
1	الأوزاعي	

تعلق حول هذا الجرد:

★ أقوال الصحابة

يكثر النقل عن ابن عباس و ابن مسعود أكثر من غيرهما، فيورد أقوالهم بدون إسناد، وغالبا ما يذكرها بعد ذكر تأويلات غيرهم، بدون تعقيب عليها.

ومما ميز تعامله مع هذا المصدر ذكره حر في حفصة وابن مسعود رضي الله عنهما، فيختم تفسير الآية بذكر ما خالف فيه أحد الحرفين المصحف الإمام، إما على سبيل المقارنة كقوله عند تفسير قوله تعالى:

(ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بجبل من الله وحبل من الناس (112)
وفي حرف ابن مسعود - رضي الله عنه - : " ضربت عليهم المسكنة " وليس فيه الذلة، وفي حرف حفصة: " ضربت عليهم المسكنة والذلة " .

وقد يتعقبها بتفسير أحيانا، مثل قوله تعالى: (وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين (115)
وهو في حرف حفصة: " فلن تتركوه " : أي: لن تتركوه دون أن تجزوا عليه؛

وقد يكون ذكر هذين الحرفين كشاهد على تفسيره كما فعل عند قوله تعالى: (فتيموا صعيدا طيبا) قيل:
التيمم: القصد؛ يقال: تيممت الصعيد وأمته، لغتان.

وقوله: (فتيموا): تعمدوا صعيدا طيبا، فإذا كان التيمم القصد والتعمد إلى الصعيد - لم يجز إلا بالنية؛ لأنه - عز وجل - أمر بالقصد إليه والتعمد، وذلك أمر بالنية؛ لأن القصد نية. وفي حرف حفصة وابن مسعود - رضي الله عنه - " فأموا صعيدا طيبا " أي: اقصدوا قصده "

★ أبو معاذ النحوي¹: وقد تتبعته نقله عنه وكثيرا ما كان يقول: "قال أبو معاذ النحوي" ومرة حلاه بقوله: "قال أبو معاذ صاحب التفسير" فرما كان عنده نسخة من تفسيره².
وغالبا ما يذكر عنه ما يتعلق باللغة وتوجيه القراءات، و لعله يتصرف أحيانا في نقوله عنه ولا يلتزم لفظه، ومن ذلك: "وقوله: (نقموا)، قال بعض أهل الأدب - أبو معاذ وغيره -: تقموا، أي: طعنوا، فيه لغتان: تقموا - بالحذف - وتقموا - بالنصب -.."
★ الكسائي: علي بن حمزة (ت 189هـ) و يورد أقواله غالبا فيما يتعلق بالنحو واللغة والقراءات، وقد يورد بعض تفسيراته أحيانا.

مثال: - في القراءات: قوله - عز وجل -: (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ... (61) وقال الكسائي: يقرأ: " يصدون " بكسر الصاد، و " يصدون " بضم الصاد.

- في النحو: قوله تعالى: "فما نقضهم ميثاقهم" الآية ... قال الكسائي: " ما " - هاهنا - صلة: فبنقضهم ميثاقهم.
- في اللغة: "قوله تعالى: (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به) الآية (83) قال الكسائي: هما لغتان، أذعت به وأذعته: إذا أفشيتته"

★ الفراء: وهو يحيى بن زياد الفراء (ت 207هـ) نقل عنه في الغالب ما يتعلق بقضايا لغوية

مثال: " قوله - عز وجل -: (لإيلاف قريش (1) إيلافهم رحلة الشتاء والصيف)، هذا يخرج على وجوه: أحدها: ما قال الفراء: إن اللام لام الاعتدال...

★ الحسن البصري: وكثيرا ما يقول "قال الحسن" و " روى الحسن " ويتعقب كلامه في أحيان كثيرة

¹ هو الفضل بن خالد المروزي، مقرر لغوي له عناية باللغة والقراءات، توفي 211هـ .

² ذكر السيوطي حين ترجم له في بغية الوعاة أنه صنف كتابا في القرآن. وكذلك الداوودي في كتاب " طبقات المفسرين " ذكر أن له تأليفا في القرآن.

مثال: وقوله - عز وجل -: (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم)

قال الحسن: كان هذا في الوقت الذي كان الجهاد تطوعاً؛ لأنه لو كان فرضاً لكان لا معنى لقوله: لا يستوي كذا من كذا، وهما غير مستويين: أحدهما فرض عليه، والآخر لا.

قيل له: هذا الذي ذكرت لا يدل على أن الجهاد ليس بفرض في ذلك الوقت؛ ألا ترى أنه قال: (أفمن كان مؤمناً مكن كان فاسقاً لا يستوي)، وقال: (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم) جمع بين متضادين، ثم قال: (لا يستويون)؛ فعلى ذلك هذا، وهو أولى.

☆ **القتبي** وهو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت 276 هـ)، ولم يصرح الماتريدي باسمه، وإنما يكتفي بنسبه "القتبي"، وهذا اللقب أطلق على كثيرين، ولكن دلت النقول التي أورد الماتريدي أن المعني هو عبد الله بن قتيبة، إذ غالبها من كتاب تفسير غريب القرآن لابن قتيبة - لم يصرح الماتريدي بهذا المصدر-، والظاهر أنه ينقلها باللفظ.

مثال: "وقال القتبي: (لقالوا لولا فصلت آياته) أنزلت عربية مفصلة بالآي كأن التفصيل للسان العرب، لكن لسنا ندري ما يريد بهذا الكلام أن التفصيل للسان العرب."

ونلاحظ من خلال هذا المثال تعليق الماتريدي على كلام ابن قتيبة ويقع منه ذلك مرات.

☆ أقوال غير منسوبة:

كثيراً ما يورد الماتريدي نقولاً غير معزوة إلى قائلها، سواء تعلقت بقضايا لغوية أو فقهية أو غيرها، فيصدر الأقوال بـ "قيل"، "قال بعضهم"، "قال بعض أهل الأدب"... الخ

مثال: "ثم قال بعض أهل التأويل: دل هذا على أن أهل النفاق كانوا صنفين: صنف كانوا يستأذنون في القعود، وصنف لا يستأذنون، ولكن يقعدون بقوله: (وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم).

☆ أقوال الفقهاء:

▲ أبو حنيفة

▲ الشافعي

▲ محمد بن الحسن الشيباني

يوردها عند مناقشة الأحكام الواردة في الآية وخاصة أبو حنيفة وفقهاء المذهب . وكثيرا ما يعقب أقوال الإمام أبي حنيفة باجتهادات محمد بن الحسن الشيباني. ويكثر من نقد أقوال الإمام الشافعي دون غيره من أصحاب المذاهب، وقد يكون مرد ذلك إلى كون المدرستين اشتهرتا باعتمادهما أصول الفقه في الاستنباطات أكثر من غيرها. ولا نجده يذكر قول غيرهم من الفقهاء إلا لماما، فلم يذكر الإمام مالك إلا في ثلاث مواطن من تفسيره، وكذا الإمام الاوزاعي ذكره في موطن واحد وذلك عند تفسير قول تعالى: (فتصيبكم منهم معرفة بغير علم) قائلا:

" وقال مالك: لا يحرق سفينة الكفار إذا كان فيها أسارى المسلمين.

وقال الأوزاعي: إذا تترس الكفار بأطفال المسلمين، لم يرموا، ولا يحرق الحصن، ولكن لا بأس بأن يرمى الحصن بالمنجنيق، ونحو ذلك."

خلاصة:

تعددت المصادر التي اعتمدها الإمام في تفسيره، سواء المصرح بها أو غيرها، بتعدد الفنون التي كان يطرق بابها خلال التفسير. وقد تفرقت هذه المصادر على مختلف الأقطار الإسلامية، ولا تذكر كتب التراجم - فيما وقفت عليه - للإمام الماتريدي رحمة، مما يدفعني للقول باعتماد الإمام لكتب هؤلاء الأعلام، كما سبق الإشارة إليه من اعتماده كتاب تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ونقله عنه لفظا. والله اعلم

خاتمة

يبدو أن تكوين الإمام الماتريدي، وكذا البيئة التي نشأ فيها قد أرخيا بظلالهما على تفسيره "تأويلات أهل السنة". فزى تأثير تتلمذه على شيوخه الأحناف على اختياراته الفقهية الموافقة للمذهب الحنفي. كما كان لانتشار العقائد الكلامية وكذا غير السنية كالرافضة الإمامية دور في مذهب الشيخ العقدي. ولئن كان للإمام أبي حنيفة السبق في التأليف في العقائد من خلال مؤلفه "الفقه الأكبر"، فلقد كان لاشتغال الإمام الماتريدي بعلم الكلام والتضلع فيه، دور في إنشائه مدرسة عقدية كلامية تقوم على اجتهاداته واختياراته. ولقد حاول من خلال تفسيره هذا -تأويلات أهل السنة- كما يظهر ذلك من منهجه فيه، أن يؤصل لتلك العقائد ويدحض في نفس الوقت أقوال المخالفين من معتزلة ورافضة إمامية وغيرهم.

و لعلنا هنا نتساءل عن غرض الإمام من تفسيره هذا، ومن خلال ملامح المنهج التي وقفنا عليها، هل كان هو الانتصار لاختياره العقدي الكلامي وكذا مذهبه الفقهي الحنفي؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون حضور شخصية الإمام في تفسيره مع ما تلقاه من معارف وتكوين عقدي أو فقهي؟

وكيفما كان الداعي لهذا التفسير، فإننا نقف من خلال منهجه على سفر من أهم الأسفار التفسيرية التراثية التي ينبغي العكوف على استخراج ما حوته من علوم و معارف تغني الدرس القرآني المعاصر من جهة، وتنبه الأمة على فضل الاشتغال بالقرآن الكريم، تفسيراً واستنباطاً سواء في الأحكام الفقهية والتي مثلتها كتب أحكام القرآن، أو في المباحث العقدية و التي ابتعدت أغلب المؤلفات فيها عن التأصيل القرآني.

والله الهادي إلى الصراط المستقيم